

الفصل الثاني

موقف المسلم من الدين
(السجود)

obeikandi.com

يروى الإمام مسلم - رضى الله عنه - فى صحيحه ، عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى - خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصُّفَّة ، رضى الله عنه - قال : « كُنْتُ أُبَيِّتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاتِيَهُ بَوْضُوهُ وَحَاجَتُهُ ، فَقَالَ : سَلْنِي . فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مِرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ .

فَقَالَ : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟
قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ .

قَالَ : « أَعْنَى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » .

السُّجُود - إِذْن - مِمَّا يُعِين عَلَى تَرْوِضِ النَّفْسِ ، لِتَتَزَكَّى ، وَهُوَ بِذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ .

وفى هذا المعنى ، يروى الإمام مسلم أيضاً ، عن أبى عبد الرحمن (ثوبان) مولى رسول الله ﷺ ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً ؛ إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ » .

والسُّجُود الذى يريده رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته وودّه ، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال وهذه العظمة ، والانقياد المطلق لرحمة الله التى تتمثل فى الرسالة الإسلامية : أوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، فى تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هى رحمة للعالمين ؛ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

فإذا كان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلل - وذلك معناه الصحيح -
كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله سبحانه وتعالى ، وكان بذلك سبيلاً إلى الجنة ،
وإلى أكثر من الجنة ، وهو القرب من الله ؛ يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (٢).

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه - في هذا المعنى :

«أقرب ما يكون العبدُ من ربه ، وهو ساجد» .

ولقيمة السجود الكبيرة عبَّرَ عن الصلاة أحياناً بالسجود ، فصلاة الضحى
يسمونها « سجود الضحى » ..

ومن أجل هذه القيمة أيضاً مدح الله من يعبرون عن خضوعهم لآياته
واستجابتهم لأمره ، بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣).

والذين هداهم الله واجتباهم :

﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٤) .

ومن صفات عباد الرحمن - التي يزيكهم بها - أنهم :

﴿ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ (٥) .

* * *

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) سورة العلق : ١٩ .

(٣) سورة السجدة : ١٥ .

(٤) سورة مريم : ٥٨ .

(٥) سورة الفرقان : ٦٤ .

على أن حادثة من الحوادث قَصَّها القرآن في غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجود ، تلك هي حادثة آدم والملائكة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (١).

بهذا النبأ حَدَّثَ الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيروره سبحانه ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ..

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٢).

لم يشذَّ منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس ، وهو كائن يختلف عن الملائكة ، وعن الإنسان ، إنه من فصيلة الجن .

كان يعبد مع الملائكة ، ويسبِّح معهم ، حتى لقد كان يُلقَّب (بطاووس العباد) لكثرة عبادته وتفانيه في العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهي بالسجود لم يسجد : لقد أبى ، والإباء ضد السجود ، واستكبر ، والاستكبار يناقِ الخضوع .. ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣).

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤).

هذه قصة معروفة ، نمرُّ عليها فلا نكاد نغيرها التفاتاً ، بيد أنها جديرة بالتأمل

(١) سورة الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة الحجر : ٣٠ .

(٣) سورة الحجر : ٣١ .

(٤) سورة ص : ٧٤ .

والاعتبار ، والقضايا التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً ، وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي ما يلي :

١- لقد صدر أمر إلهي بالسجود ، فاستجاب له طائفة ، فنعموا برضوان الله ، وشدَّ فردٌ ، فطُرد من رحمته سبحانه .

٢- إنه طُرد لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي .

٣- كان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه ، وعن تمرد في فطرته .

٤- لم تُلغ عبادته كبرياءه ، فهي - إذن - لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً لنفت الكبرياء وأزالته . إنها - إذن - لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء : لا يجتمعان .

٥- هذا الكبرياء ؛ كما تمثل في مخالفة الأمر الإلهي ، تمثل في المحاولة التي أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلاً :

﴿... أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١).

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ، ومنطق الكبرياء ، فسجوده لأدم ليس عبادة له وإنما عبادة لله ، لأنه خضوع لأمر الله وحسب .

٦- الموقف السليم - إذن - هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها : من أنه عند الأمر الإلهي يجب أن تكون الاستجابة فورية ، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه - في صراحة - كلمة « إذ » في قوله تعالى :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (٢).

وهذه الفورية طبعاً هي في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني .

٧- والقضية التي نختم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصة هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول ؛

(١) ، (٢) سورة الأعراف : ١٢ .

فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقى في مدارج السمو الروحى ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن ، ولا معنى - إذن - بعد هذا الأمر الإلهى للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، لأن يختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والمَلَك ..

ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهى إلى حد :

« مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي ، وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِن » .

باب الفيوضات الإلهية - إذن - : مفتوح على مصراعيه ، والقرب منه ميسور . وإذا سجد الإنسان لله رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره برضوانه . أما المبدأ المهم ، الذى نريد أن يجعله كل مؤمن نُصِبَ عينيه ، فهو أن الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود ، وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم .. ومحمداً عليه الصلاة والسلام . إنه يعرف أن إله إلا الله ، ويعرف أن محمداً رسول الله . ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسلُ الله ، ومعرفته بهذه المسائل هى من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين ..

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه سجد ، فإذا لم يتأتَّ السجود فلا إيمان . يشهد لذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

لقد كان سعيد بن جبير - رضى الله عنه - يقول : « مَا آسَى عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا عَلَى السُّجُود » .

(١) سورة النساء : ٦٥ .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السَّجَّاد » لكثرة سجوده .
وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن - ليكون على النقيض من إبليس .

ونختم هذه المعانى بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله ﷺ - معه في حال حياته ، وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته - :
﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ^(١) .

إنه النور الذى يشرق على جباههم ، لسجودهم لله ، وهو الغرر التى ستكون في وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

* * *

٣

يتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره - سبحانه وتعالى - أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل إنما هى : كبرياء ، وهى : إبليسية .

وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إبليس في المجتمع الإنسانى : إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحي الإلهى جملةً ، أو يحاولون أن يزونا الوحي بميزان العقل ، فيرفضون ويقبلون ويؤوّلون ما شاء لهم الهوى ، ويؤفّقون ، ويوجدون بعقولهم المآزق - التى يزعمونها مشكلات نظرية عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

وخلفاء إبليس هم أولاً - وبالذات - الملاحدة :

إنهم - على نسق التعبير الجارى - إبليسيون أكثر من إبليس نفسه ؛ ذلك أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثاً ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ؛ ففاقوا زعيمهم ، ولكنهم بتفوقهم على زعيمهم قد أرضوا غروره ؛ ذلك أنه خاطب الله قائلاً :

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَنْتَبِهَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١).

ولقد وصل إبليس إلى مراده تامة في طائفة الملاحدة .

والإلحاد درجات : وأخسُّ درجات الملحدين لا شك إنها هي درجة هؤلاء الذين اعتقدوا - على حد تعبير الغزالي - : « أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً » .

وإذا سألت هؤلاء : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٢) ؟

كانت حيرتهم في الإجابة كافية في البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا - إذن - إلا عبيداً لإبليس .

وهناك الإلحاد بإنكار البعث .

والإلحاد بإنكار الرسالة .

بيد أن هؤلاء وأولئك وتلكم : يَصُدِّقُ عليهم قول الله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣).

والطريق الذي ينقذ به هؤلاء أنفسهم وقلوبهم إنما هو : المبادرة بالسجود لله ، لا للهوى المُرْدِي ، فيتكشَّف الله لهم في كل شيء ، وتظهر لهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤).

وإن من أحدث اختراعات إبليس في هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب

(١) سورة الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

(٢) سورة الطور : ٣٥ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٣ .

(٤) سورة فصلت : ٥٣ .

المسمّى بالوجودية ؛ وهو مذهب يدعو كل إنسان لأن يحقق وجوده حسبما يرى وتبعاً لما يريد ، غير متقيّد بعُرف ، ولا عادات ، ولا تقاليد ، ولا دين ، ولا أوضاع أيّاً كانت ، وهو - إذن - يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهى إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله أحد كبار الكتّاب الغربيين :

« إن الوجودىّ مثله كمثل الكلب الذى يجرى دائراً حول نفسه ليمسك بذنبه، فلا هو يدرك ذنبه ولا هو يقف عن الجرى ، وهى لعبة يلعبها الكلاب حينما يجردون الفراغ فيلهون بها لا نتيجة له . »

على أن هذا المذهب الوجودىّ قديم ؛ إذ إنه «المذهب السوفسطائى» اليونانى ، وهو مذهب يظهر دائماً فى عصور الانحلال ، وفى البيئات المنحلة ، ولا وجود له فى عصور الجدّ ، ولا فى البيئات الجادة ؛ ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادة لا تبيح لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب - حينما تلهو الكلاب - فى الجرى وراء أذنانها ليمسكوا بها .

فالوجودية - إذن - اختراع إبليس ، لإخراج طائفة من البشر عن نطاق السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

خلفاء إبليس - ثانياً - هم طائفة الفلاسفة العقليين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية - مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافها وتزيين غاياتها - ليست إلا محاولة تحكيم «العقل» فيما أتى به «الوحى» .

وهى من غير ريب تريد أن تخترع عقلياً ما فرغ منه «الوحى» فى قضاياها ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلى بجوار الدين الإلهى ، وهذا الدين العقلى يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف فى هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهى .

فإذا كانت البيئة متشعبة بالدين الإلهى ، يغمر قلبها الإيمان ، وتغمر وجدانها

الهداية ، حاول المتفلسفون - في طريقة إبليسية - أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .
ومعنى هذا أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين موقف
الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق فيما يأتون وما يدعون ؛ ذلك
أنهم - قلوبهم وأفئدتهم - هواء .

وإذا كان الاتفاق بينهم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم
وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو
عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .
الفلاسفة - إذن - لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله إلا شكلاً ، فإنها طائفة المعتزلة من علماء
الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على تحكيم
العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال
(سبحانه وتعالى) ويحرمون عليه إتيان بعضها (سبحانه وتعالى) ، فوضعوا
أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله (سبحانه) يلزمونه سلباً ويلزمونه
إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَآءَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه : كالذات الإلهية ،
والصفات ، والقدر . وكان لابد - وقد اتبعوا أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا
وتذهب بهم الأهواء كل مذهب ، فكانوا فرقاً وأحزاباً شتى ، لا تكاد تدخل
تحت حصر .

وكل مَنْ نَهَجَ النهج العقلي في الدين ، في العصر الحاضر ، إنما هو تابع من
أتباع المعتزلة ، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده ، إنما هي

(١) سورة فاطر : ٨ .

مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهى مدرسة اعتزالية فى غاياتها وأهدافها؛ ذلك أنها تضع قضايا الدين فى ميزان عقلها ، فتتنقى وتثبت ، حسبما تقتضيه الأهواء والتزعات .

والمدرسة العقلية فى الدين ، أياً كانت وفى أى مكان وجدت ، وفى أى زمان نشأت - لم تسجد لله سجوداً خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل ، وعبدت العقل فتفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله وحده ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين فى العلم ؛ إذ الراسخون فى العلم هم دائماً مؤمنون ساجدون لأمر الله ، وإليهم تشير الآية الكريمة :

﴿ اٰمَنَ هُوَ قَاٰنَتْ اٰنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَاٰنَمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَّبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ اِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اُولََٓٔا الْاَلْبَابِ ﴾ (٢) .

ومن البديهي أن المؤمن الحقيقى هو وإبليس على طرفى نقيض ، ويرسم الله (سبحانه وتعالى) صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإبلسية على تفرقها واختلافها ، ويبين جزاء المؤمنين عنده فيقول سبحانه :

﴿ اِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ اِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ اَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) سورة النساء : ١١٥ .

(٢) سورة الزمر : ٩ .

(٣) سورة السجدة : ١٥ - ١٧ .